مع ابن عربي في عقائده

في البدء: من هو ابن عربي ؟(*).

هو محمّد بن عليّ بن محمّد ابن العربي، أبو بكر الحاتمي الطائي، المعروف بالشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي.

مولده بالأندلس في سنة ٥٦٠ هـ. وزار الشأم وبلاد الروم والعراق، ثمّ زار مصر فحُبِس فيها بسبب «شطحات صدرت منه» كما قيل، وأراد بعضهم قتله، ولكن سعى آخرون في خلاصه، فنجا، وخرج من مصر إلىٰ دمشق، فأقام فيها حتى توفّي سنة ٦٣٨ هـ.

وكان فيلسوفاً متصوّفاً، من أئمّة المتكلّمين في كلّ علم، وله تصانيف عديدة قدّرت بنحو أربعمئة كتاب ورسالة، وله ديوان شعر أكثره في التصوّف.

وصفه الذهبي فقال: هو قدوة المتكلّمين بوحدة الوجود.

ووحدة الوجود عند ابن عربي تعني كما عبّر عنها هو:

(أنّه ما في الوجود إلّا الله، ونحنُ وإن كنّا موجودين فإنّما وجودنا به ـ تعالى ـ، وفي هذا المعنى قول لَبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ(١). قال رسول الله ﷺ في

(*) سير أعلام النبلاء ٢٣: ٤٨، لسان الميزان ٥: ٣١١، الأعلام ٦: ٢٨١.

(١) هذا هو النصف الأوّل من بيت لَبيد بن ربيعة، ونصفه الثاني: وكلّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ.

هذا البيت: «أصدق بيت قالته العرب قولُ لبيد[١]»[٢].

وابن عربي من أكثر مَن وقع تحت مطرقة ابن تيميّة، فوصفه بالكفر والضلال، ونسب إليه من الأقوال ما يثير الدهشة، فيمرّ على البسطاء والمقلّدين الواثقين بشيخهم مرور البراهين المحكمة، والحقائق الثابتة! ولكن ما أن يكلّف المرء نفسه قليلاً في البحث عن الحقيقة، ويلقي جلباب التقليد وراءه، حتّى يجد أنّه كلام ليس فيه من الحقّ شيء!.

بل يجد أغرب من ذلك، يجد وهو يتنقّل بين الحقيقة والافتراء ما هو أشبه ببعض اللُّعَب السياسيّة، أو المسرحيّات الساخرة!.

لذا وسمتُ الفقرات التي سأعرضها هنا (بالمشاهد) وما أن تقرأ شيئاً منها حتّى توافقني على هذا العنوان..

المَشهد الأوّل:

قال ابن تيميّة:

ومنهم ـ أي الصوفية ـ من يدّعي أنّ خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله، وأنّ الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته، كما زعم ذلك ابن عربي صاحب كتاب (الفتوحات المكيّة) وكتاب (الفُصوص)، فخالف الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله وأوليائه[٣].

---

(١) كنز العمّال ٣: ٥٧٧ / ٧٩٧٨.

(٢) الفتوحات المكيّة ٣: ٤٤٣.

(٣) ابن تيميّة (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان): ٨٠ ـ جماعة الدعوة إلى القرآن والسُّنّة ـ بشاور ـ باكستان.

كلام ابن عربي في الأنبياء والأولياء:

ننقل من كلام محيي الدين بن عربي في كتابه (الفتوحات المكيّة) عدّة نصوص في هذا الشأن ليتّضح الأمر وتسهل المقارنة.

قال ابن عربي: إنّ الله اصطفى من كلّ جنسٍ نوعاً، ومن كلّ نوعٍ شخصاً، واختاره عنايةً منه بذلك المختار... فاختار من النوع الإنساني: المؤمنين، واختار من المؤمنين الأولياء، واختار من الأولياء الأنبياء، واختار من الأنبياء الرسُلَ، وفضّل الرسُلَ بعضهم على بعض[١].

وهذا صريحٌ في تفضيل الأنبياء على الأولياء.

وقال: إعلم أنّ الرسلَ أعدل الناس مزاجاً، لقبولهم رسالات ربّهم، وكلّ شخصٍ منهم قَبِلَ من الرسالة قدر ما أعطاه الله في التركيب، فما من نبيٍّ إلّا بُعِثَ خاصّةً إلى قومٍ معيّنين لأنّه على مزاجٍ خاصٍّ مقصور، وأنّ محمّداً ما بعثه الله إلّا برسالةٍ عامّةٍ إلى جميع الناس كافّةً، ولا قَبِلَ هو مثل هذه الرسالة إلّا لكونه على مزاجٍ عامٍّ يحوي على مزاج كلّ نبيٍّ ورسول، فهو أعدل الأمزجة وأقومها وأكمل النشآت[٢].

وقال: إنّ شرط أهل الطريق ـ يعني مشايخ الصوفيّة ـ في ما يُخبرون عنه من المقامات والأحوال أن يكون عن ذوق، ولا ذوق لنا ولا لغيرنا ولا لمن ليس بنبيّ صاحب شريعة في نبوّة التشريع ولا في الرسالة، فكيف نتكلّم في مقام لم نصل إليه،

---

(١) الفتوحات المكيّة ١: ٤٦٥.

(٢) الفتوحات المكيّة ٣: ٢٥١.

أو على حالٍ لم نذُقْهُ لا أنا ولا غيري ممّن ليس بنبيّ ذي شريعةٍ من الله، ولا رسول ؟! حرامٌ علينا الكلام فيه[١].

وقال أيضاً: حضرت في مجلس فيه جماعة من العارفين، فسأل بعضهم بعضاً: من أيّ مقامٍ سألَ موسى الرؤية[٢].

فقال الآخر: مِن مقام الشوق.

فقلتُ له: لا تفعل، أصل الطريق أنّ نهايات الأولياء بدايات الأنبياء، فلا ذوق للوليّ في حال من أحوال أنبياء الشرائع، ومن أُصولنا أنّا لا نتكلّم إلّا عن ذوق، ونحن لسنا برسل ولا أنبياء شريعة، فبأيّ شيءٍ نعرف من أيّ مقام سأل موسى الرؤية ؟![٣].

الآن، وبعد أن قرأنا عقيدة ابن عربي أصبحنا قادرين على معرفة مدى صحّة ما نسبه إليه ابن تيميّة، وسنزداد يقيناً مع المشاهد التالية..

المشهد الثاني:

قال ابن تيميّة:

ولمّا كانت أحوال هؤلاء شيطانيّة، كانوا مناقضين للرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم، كما يوجد في كلام صاحب (الفتوحات المكيّة) و (الفُصوص) وأشباه ذلك، يمدح الكفّار مثل: قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم، وينتقص

---

(١) الفتوحات المكيّة ٢: ٢٤.

(٢) أراد قول موسى عليه السلام: (رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ) الأعراف ٧: ١٤٣.

(٣) الفتوحات المكيّة ٢: ٥١.

الأنبياء: كنوح وإبراهيم وموسى وهارون! ويذمّ شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين: كالجنيد بن محمّد، وسهل بن عبدالله التستري وأمثالهما، ويمدح المذمومين عند المسلمين: كالحلّاج ونحوه[1].

مع ابن عربي:

إنّ الصحيح من عقيدة ابن عربي الثابت في كتبه هو على الضدّ تماماً ممّا ذكره ابن تيميّة.

فعن المقام الأوّل: حيث نسب إليه ابن تيميّة مدح الكفّار وذمّ الأنبياء، اقرأ هذا النصّ من كلام ابن عربي:

قال ابن عربي: ينبغي للمذكّر أن يراقب الله ويستحي منه ويكون عالماً بما يورده، وما ينبغي لجلال الله، ويتجنّب الطامّات في وعظه، فإنّ الملائكة يتأذّون إذا سمعوا في الحقّ وفي المصطفَين من عباده ما لا يليق، وهم عالمون بالقصص، وقد أخبر ﷺ أنّ العبد إذا كذب الكذبة تباعد منه الملك ثلاثين ميلاً من نتن ما جاء به، فتمقّتُهُ الملائكة.

فإذا علم المذكّرُ أنّ مثل هؤلاء يحضرون مجلسه، فينبغي له أن يتحرّى الصّدق ولا يتعرّض لما ذكره المؤرّخون عن اليهود من زلّاتِ مَنْ أثنى الله عليهم واجتباهم، ويجعل ذلك تفسيراً للقرآن، ويقول: قال المفسّرون!.

وما ينبغي أن يقدم على تفسير كلام الله بمثل هذه الطوامّ، كقصّة يوسف وداود وأمثالهم، ومحمّد ﷺ، بتأويلات فاسدة وأسانيد واهية عن قوم قالوا في الله

---

(١) الفرقان: ٩٨.

ما قد ذكر الله عنهم[١]، فإذا أورد المذكِّر هذا في مجلسه مقتته الملائكة ونفروا عنه، ومقته الله، ووجد الذي في دينه نقص رخصةً يلجأ إليها في معصيته، ويقول: إذا كانت الأنبياء قد وقعت في مثل هذا فمن أكون أنا؟ وحاشا والله الأنبياء ممّا نسبت إليهم اليهود لعنهم الله..

وهؤلاء الّذين يردّدون افتراءات اليهود نَقَلَةٌ عن اليهود، لا عن كلام الله، لما غلب عليهم من الجهل، فواجبٌ على المذكِّر إقامة حرمة الأنبياء ﷺ، والحياء من الله، وأن لا يقلّد اليهود في ما قالوا في حقّ الأنبياء ﷺ، ونَقَلَة المفسّرين خذلهم الله[٢].

هكذا عظّم ابن عربي حرمة الأنبياء ﷺ، وردّ جميع ما رواه اليهود من الإسرائيليّات التي تناقلها حشويّة المفسّرين.

فأين هذا ممّا نسبه إليه الشيخ؟!.

بل أين هذا من كلام الشيخ نفسه حين ذهب يفسّر قوله تعالى: ﴿ *جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا* ﴾؟![٣].

وللشيخ ابن عربي في وصف الأنبياء ﷺ أبيات من الشعر، نذكر منها قوله:

هُمْ أنبياءٌ أحبّاءٌ بأجمعهم ... بلا خلاف، وهُم من جُملة الأُمم

وهم على فضلهم أعلى التفاضل في ... تقريبهم، ولهم جوامعُ الكَلِمِ[٤]

وعن المقام الثاني: حيث زعم ابن تيميّة أنّ ابن عربي يَذمّ الجُنيد وسهل بن

---

(١) يريد اليهود وقولهم: يد الله مغلولة.

(٢) الفتوحات المكيّة ٢: ٢٥٦.

(٣) تقدم تفسيره لهذه الآية مفصّلاً في الفصل السابق ص ١٤٥.

(٤) الفتوحات المكيّة ٢: ٢٥٥.

عبدالله التستري، إقرأ ما قاله ابن عربي في هذين الرجلين وأمثالهما من الشيوخ الممدوحين:

قال الشيخ ابن عربي في كلامه عن الهَبَاء باعتباره المخلوق الأوّل في العالم، قال: وقد ذكره ـ أي الهَبَاء ـ عليّ بن أبي طالب ﷺ، وسهل بن عبدالله وغيرهما من أهل التحقيق أهل الكشف والوجود[١].

وقال في موضع آخر: وطائفةٌ أُخرى من علماء هذه الأُمّة يحفظون عليها أحوال الرسول ﷺ وأسرار علومه كعليّ بن أبي طالب ﷺ، وابن عبّاس، وسلمان ـ إلى أن قال ـ ومن نزل عنهم بالزمان كشيبان الراعي... والجنيد والتُستري ومن جرى مجرى هؤلاء من السادة في حفظ الحال النبويّ والعلم اللدنّي والسرّ الإلهي[٢].

هذا هو قوله في الجُنيد والتُستري، وهكذا أطراهم كلّما ذكرهم، وأثنى عليهم في مواضع يصعب حصرها..

فهل بعد هذا التبجيلِ تبجيلٌ ؟! يقرنهم بعليّ بن أبي طالب ﷺ، ويجعلهم من السادة الّذين حفظوا الحال النبويّ، والعلم اللدنّي، والسرّ الإلٰهي !.

وأمّا المقام الثالث: حيث زعم ابن تيميّة أنّ ابن عربي يمدح الحلّاج، فإنّ خلاصة رأي ابن عربي في الحلّاج قد جمعها في قوله: إنّ الحلّاج ليس من أهل الاحتجاج[٣].

---

(١) الفتوحات المكيّة ١: ١١٩.

(٢) الفتوحات المكيّة ١: ١٥١.

(٣) الفتوحات المكيّة ٤: ٣٢٨.

أفي هذا شيءٌ من المديح، أم هو طعنٌ صريح في الحلّاج ؟!.

فهل رأيت الشيخ أنصف في شيءٍ ممّا ذكره، أم تراه عمد إلىٰ أقوال ابن عربي فقلبها إلىٰ العكس ليتّخذها ذريعةً إلىٰ طعنه ورميه بالكفر والضلال ؟.

وفي المشهد الآتي يزداد الوضوح:

المشهد الثالث:

ما زال الشيخ ابن تيميّة ينسب ابن عربي إلىٰ القول بالاتّحاديّة، أي أنّ وجود المُحْدَث هو عين وجود القديم[١].

واستخدم في الردّ عليه عباراتٍ ساخرة استهزاءً به في غير موضع من كتابه (الفرقان) وغيره.

ثمّ تكلّم علىٰ الاتّحاديّة فقال: يجعلون الحقيقة أنّه ـ أي الله تعالى ـ هو عين الموجودات، وحقيقة الكائنات، وأنّه لا وجود لغيره!.

ثمّ قال مفسّراً قولهم هذا بأنّه: لا يعني أنّ قيام الأشياء به ـ تعالى ـ ووجودها به، كما قال النبيّ ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد: ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ»، وكما قيل في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، فإنّهم لو أرادوا ذلك لكان ذلك هو الشهود الصحيح، لكنّهم يريدون أنّه هو عين الموجودات. فهذا كفر وضلال[٢].

لاحظ كيف فسّر كلامهم ثمّ رميهم بالكفر والضلال!.

---

(١) الفرقان: ٩٩.

(٢) مجموعة الفتاوى ١٠: ٣٤٢ ـ الرياض ـ ١٣٨٢ هـ، عنه محمود الغراب في (شرح كلمات الصوفيّة).

والأكثر من هذا غرابةً شيئان:

الأوّل: أنّ كلامه الذي جعله تفسيراً صحيحاً مطابقاً للحديث النبويّ في شعر لبيد، ومطابقاً للآية الكريمة، ثمّ سمّاه «الشهود الصحيح»، إنّ هذا الكلام بعينه وحروفه هو كلام الشيخ محيي الدين بن عربي، غير أنّ ابن تيميّة قدّم فيه جملة وأخّر أُخرى، ولكن من غير أدنى زيادة في لفظٍ أو معنى! فاقرأ هذه الفقرة من كلام ابن عربي لترى العجب:

قال ابن عربي:

إعلم أنّ العالَم عبارة عن كلّ ما سوى الله، وليس إلّا الممكنات سواءٌ وُجِدَتْ أو لم توجد، فإنّها بذاتها علامةٌ على علمنا بواجب الوجود لذاته وهو الله ـ إلى أن قال ـ فالعالَم إن نظرتَ حقيقتَهُ إنّما هو عَرَض زائل، أي في حكم الزوال، وهو قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «أصدق بيتٍ قالته العرب قول لبيد: ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ» يقول: ما لَهُ حقيقةٌ يثبُت عليها من نفسه، فما هو موجودٌ إلّا بغيره، ولذلك قال ﷺ: «أصدق بيت قالته العرب: ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ»[1].

فهل زاد ابن تيميّة حرفاً واحداً على هذا الكلام في ما أسماه الشهود الصحيح؟.

والثاني: قوله: إنّ ابن عربي يقول: «إنّ وجود المُحدَث هو عين وجود القديم» والمُحدَث: هو المخلوق، والقديم: هو الخالق جلّ جلاله..

وابن عربي أبرأ ما يكون من هذا، وقد شرح عقيدته في عبارة يفهمها الصغار

---

(١) الفتوحات المكيّة ٣: ٤٤٣.

كما يفهمها الكبار، في مواضع عديدة من كتبه يصعب حصرها، ومنها:

قوله المتقدّم: إعلم أنّ العالَم عبارة عن كلّ ما سوى الله... إلىٰ آخر كلامه المذكور.

وقوله: يستحيلُ تبدُّلُ الحقائق، فالعبدُ عبدٌ، والربُّ ربٌّ، والحقُّ حقٌّ، والخلقُ خَلقٌ[1].

وقوله: لا يجتمع الخلق والحقّ أبداً في وجهٍ من الوجوه، فالعبدُ عبدٌ لنفسه، الربُّ ربٌّ لنفسه، فالعبوديّة لا تصحّ إلّا لمن يعرفها فيعلم أنّه ليس فيه من الربوبيّة شيء، والربوبيّة لا تصحّ إلّا لمن يعرفها فيعرف أنّه ليس فيه من العبوديّة شيء، فأوجب علىٰ عبده التأخّر عن ربوبيّته، فشرع له الصلاة، ليُسمّيه بالمصلّي، وهو المتأخّر عن رتبة ربّه[2].

وغير هذا كثير في البراءة من القول بالاتّحاديّة.

إذن لم ينقل الشيخ حرفاً واحداً من كلام ابن عربي بأمانة حين وجده مطابقاً للعقيدة الحقّة!.

لقد حَمَلَهُ تعصُّبه الشديد ضدّ ابن عربي علىٰ أن يقلب عقيدته رأساً على عقب ليفتي بكفره وضلاله!!.

وربّما يقال إنّه لم يقرأ كتب ابن عربي، ولكنّه سمع مِن بعض مَن يثق به من خصوم ابن عربي، فقال ما قال! ولعلّ هذا أحسن الأعذار!.

---

(١) الفتوحات المكيّة ٢: ٣٧١.

(٢) الفتوحات المكيّة ٣: ٣٧٧، وانظر: (شرح كلمات الصوفيّة والردّ على ابن تيميّة) للأُستاذ محمود محمود الغراب ففيه تفصيل كثير.